الشيخ محمد عبده دراسة في طروحاته الفكرية ١٨٤٩- ١٩٠٥م

AL- shaik Mohammed Abda is considemd a religious reformer

أ . م. د . كهلان كاظم حلمي القيسي **م . د . فهمي أحمد فرحان سعود الجنابي**

جامعة الأنبار / كلية الآداب **جامعة الأنبار/ كلية التربية للعلوم الإنسانية**

الملخص:

يعد الشيخ محمد عبده مصلحاً دينياً ، وفيلسوفا كبيراً بل رائداً للفكر المصري الحديث ، ولد في القاهرة عام ١٨٤٩ ، إذ حملت أفكاره حساً وطنياً عالياً عن طريق اشتراكه بالحركة الوطنية المصرية التي نتجت عنها ثورة عرابي ، فقد أكد على المبادئ الوطنية وحب الوطن ومقاومة البريطانيين ، لذلك استطاع أن يؤثر في قطاع واسع من المثقفين والكتاب والمفكرين المصريين ،أمثال محمد رشيد رضا ، وان يكون أحد دعاة الجامعة الإسلامية ، ويعد الشيخ محمد عبده من ابرز مفكري عصره ، وكان تأثيره في الفكر الديني والسياسي واضحاً ، لذلك تكونت لديه فكرة واضحة عن ضرورة إصلاح التعليم الديني في الأزهر، ومن أبرز مؤلفاته الفكرية والأدبية والإصلاحية : رسالة الواردات ، الإسلام والتجديد ، رسالة التوحيد ، شرح البصائر النصرانية ، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، توفي عام ١٩٠٥ في القاهرة .

AL- shaik Mohammed Abda is considemd a religious reformer philosopher and a pioneer in modrn ldcology of Egypt . he was born in ciro 1849, His ldcas were mixed with a higt sense of patriotism through his participation in the national egyption moument which produced urabis revolution . He confirmed the national principles and love of country and resistance of the British Army .Abda is considered one of the best thinkers . So he had an idea to from the best of his writings is , Resalat ALtawheed, Resalat ALtawheed ,Shrah ALbasaer ,Islam and Tagdid, Islam and Nasranya. He died in 1905 in cairo

الشيخ محمد عبده دراسة في طروحاته الفكرية ١٨٤٩- ١٩٠٥م

المقدمة

تأتي أهمية دراسة الشخصيات الفكرية وما انضوت تحت لوائها من اتجاهات في الفكر العربي الحديث من نواحٍ عدة أهمها : النجاح الذي تحقق في عملية تغيير حركة الفكر والمجتمع العربي الإسلامي وبث الوعي الوجداني في نفوس أبناء الأمة بدعواتهم إلى التحرر الفكري ، والتحرر السياسي والاقتصادي من الهيمنة الأجنبية ، ثم اتخاذهم مواقف في تقديم الحلول لمعالجة قضايا المجتمع العربي الفكرية والدينية والاجتماعية ومن ثم الأحداث الجارية آنذاك بأساليب جديدة من التفكير العقلاني ، وهذا ما يمكن أن نسميه بالنهضة الفكرية التي تعني انبعاثا جديدا ، أو ولادة جديدة، يتم بها رفض ما هو سائد ومهيمن من فكر ، وثقافة ، وأُطر اجتماعية دخيلة على المجتمع الإسلامي.

وقد عبر الاتجاه الديني عن وعي فكري وسياسي مصري لاستناده إلى الشعور المتمسك بالوحدة الروحية التي تربط بين جميع المسلمين في أي مكان من المعمورة .

والقول الموجز في رسالة محمد عبده الفكرية أنها ارتكزت على ثلاثة أمور : الإصلاح الديني المؤسسي للأزهر ، إصلاح اللغة والأدب ، والإصلاح السياسي والاجتماعي ، ثم انه لم يكن منظراً ومفكراً أيديولوجيا نظرياً فحسب ، إنما جسد أفكاره عملياً عن طريق اشتراكه بالحركة الوطنية المصرية التي نتجت عنها ثورة أحمد عرابي ، فقد أكد على المبادئ الوطنية وحب الوطن ، لذلك استطاع أن يؤثر في قطاع واسع من المثقفين والكتاب والمفكرين المصريين ، أمثال محمد رشيد رضا ، وأن يكون أحد دعاة الجامعة الإسلامية . وعليه احتوت خطة البحث على ثلاثة محاور رئيسة :

أولاً : ولادته ونشأته الدينية .

ثانياً : دوره في الحركة الفكرية والوطنية المصرية .

ثالثاً : مؤلفاته وطروحاته الفكرية .

أولا : ولادته ونشأته الدينية

من مؤسسي النهضة الفكرية المصرية الحديثة ، وكبار الدعاة في التجديد الديني والإصلاحي في العالم الإسلامي ، ولد في قرية نصر بمحافظة البحيرة في مصر عام ١٨٤٩،

درس في الأزهر وحفظ القرآن الكريم، تولى تحرير صحيفة(الوقائع المصرية)، اشترك في الثورة العرابية فصدر عليه الحكم بالنفي ، فاختار بيروت ومنها رحل إلى باريس فأصدر مجلة(العروة الوثقى)[١].

ويعد الشيخ محمد عبده مصلحاً دينياً ، وفيلسوفا كبيراً بل رائداً للفكر المصري الحديث ، تتلمذ على يد شيخه جمال الدين الأفغاني * وأعجب بآرائه[٢] ، وكانت نقطة البداية في تفكير محمد عبده هي الانحلال الداخلي والحاجة إلى التجديد في الإسلام ، بل كان يسعى إلى إقامة المجتمع الصالح ، إذ واجهته في مصر صورتان متباينتان للمجتمع الإسلامي : صورة قديمة أصيلة تعود إلى عهد الرسول(صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين ، وأخرى حديثة متأثرة بالمجتمع المعاصر لذلك كان عليه أن يوفق بين المجتمع الإسلامي الأصيل والمجتمع الذي كان يعيش فيه[٣] .

نشأ محمد عبده نشأة دينية في قرية (محلة نصر) وتعلم فيها القراءة والكتابة ، ثم التحق بالمسجد الأحمدي في طنطا ، فأتقن تجويد القرآن الكريم ، ولما أكمل تعليمه بالمسجد انتقل إلى القاهرة ليتابع تعليمه العالي في الأزهر[٤] ، وبعد دراسة اثنتا عشرة سنة نال الشهادة العالية من الأزهر عام ١٨٧٧م ، وعين مدرساً في دار العلوم ، ونشر مقالاته في صحيفة الأهرام ، ثم تولى رئاسة تحرير صحيفة الوقائع المصرية، واستمر في هذا العمل نحو ثمانية عشر شهراً ، ونتيجة لتأثر محمد عبده بأفكار أستاذه الأفغاني فصل من التدريس عام ١٨٧٩وهو العام الذي نفي فيه الأفغاني من مصر[٥]، ثم اتخذ من عمله الصحفي والتأليف منبراً للدعوة إلى الإصلاح[٦] وكان ذلك واضحاً في مؤلفاته ومن أبرزها (رسالة الواردات ، الإسلام والتجديد ، رسالة التوحيد ، شرح البصائر النصرانية ، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية)[٧]، لأن أوضاع مصر في أواخر عهد الخديوي إسماعيل كانت مضطربة بسبب وقوعها في مشكلة الدَين وتدخل الدول الأوربية في شؤون مصر الداخلية ، وكذلك اضطراب الوعي الفكري فيها، فليس للمصريين وسيلة لنقد الحاكم ، فما عليه إلا أن يأمر ، وما على المحكوم إلا أن يطيع فكانت هذه الأمور مدعاة لأولي الرأي وأصحاب الفكر أن يدعو إلى الإصلاح[٨] .

ويعد الشيخ محمد عبده من أبرز مفكري عصره ، وكان تأثيره في الفكر الديني والسياسي واضحاً ، فهو يرى أن ما أصاب المسلمين من انحلال وتراجع يعود إلى الجمود العلمي في

البلدان الإسلامية ، لأن الإسلام على الدوام يشجع العلم تشجيعاً إيجابياً، وإنما يعود سبب الجمود إلى ابتعاد المسلمين عن القواعد والأصول الحقيقية لدينهم[٩]. والأدلة كثيرة وردت في القرآن الكريم عززت من أهمية العلم منها قوله تعالى:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [١٠] .

بدأت فكرة الإصلاح الديني في ذهن محمد عبده بداية مبكرة ، إذ نشر في عام ١٨٧٦مقالاً في صحيفة الأهرام أكد فيه: أنه لا يكفي دراسة المؤلفات العربية التقليدية في الشرع الإسلامي ، فتكونت لديه فكرة واضحة عن ضرورة إصلاح التعليم الديني في الأزهر حيث قال ((إن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام ، فصلاحه إصلاح لهم وفساده فساد لهم))[١١] ، ويرى محمد عبده إن بقاء الأزهر على حاله يجعله عاجزاً عن أداء رسالته ، وكان يريده أن يكون منارة للعالم الإسلامي كله ، لا في علوم الدين وحدها ، بل في علوم الدنيا [١٢]، ويروي محمد رشيد رضا إن محمد عبده قال له : ((إن بقاء الأزهر متداعياً على حاله في هذا العصر مُحال ، فهو إمّا أن يُعمر ، وإما أن يتم خرابه ، وإنني أبذل جهد المستطاع في عمرانه)) [١٣].

وعليه انقسم دعاة الإصلاح إلى فريقين الفريق الأول أراد التقدم إلى الأمام ولم يرض السير ببطء ، ولا التفكير الهادئ ، أما الفريق الثاني فقد رأى الخير في التأني والسير على نشر التعليم الصحيح بين أفراد الشعب،وان يكون رئيس الحكومة حازماً عادلاً ينفذ خطوات الإصلاح المنشود[١٤] .

لقد أدى تفاقم الأوضاع السياسية والاقتصادية في مصر إلى قيام الجيش المصري بثورة عرفت في التاريخ ((بالثورة العرابية)) نسبة إلى قائدها أحمد عرابي ،إذ بدأت الثورة في التاسع من أيلول عام ١٨٨١م، وطالبت بإصلاح الجيش وشؤون الحرب لتصل إلى المطالبة بالإصلاح العام الشامل ، ولاسيما الإصلاح الدستوري ، اتصل فيها زعماء الجيش برجال الحزب الوطني وتكلم فيها أحمد عرابي باسم الأمة المصرية [١٥].

شاركت في الثورة العرابية طبقات المجتمع المصري كافة يجمعهم هدف مشترك هو وقف التدخل الأجنبي في شؤون مصر ، وتقييد سلطة الخديوي توفيق المطلقة ، والواقع أن الجيش أصبح مع الشعب بعد أن كان أداة طيعة بيد السلطة لقمع الشع، وقد أثارت الثورة العرابية قلقا

جديا لدى الأوساط السياسية الغربية التي لها مصالح في مصر ولاسيما بريطانيا وفرنسا ، ومما لا شك فيه أن التقاء المصالح البريطانية مع مصالح الخديوي هي التي أنهت الثورة العرابية واستسلم على أثرها أحمد عرابي وحوكم هو وأصحابه بالإعدام ثم بدل الحكم إلى النفي من مصر ، وبذلك انتهت الثورة العرابية وعلى أثرها احتلت القوات البريطانية القاهرة في الرابع عشر من تموز عام ١٨٨٢ ، وعاد الخديوي توفيق إلى القاهرة تحت حراب البريطانيين في الخامس والعشرين من أيلول عام ١٨٨٢[١٦].

ثانياً : دوره في الحركة الفكرية والوطنية المصرية

اشترك الشيخ محمد عبده في ثورة أحمد عرابي عام ١٨٨٢وسجن بعدها ثلاثة أشهر، ونفي بعدها ثلاث سنوات خارج مصر ، ثم انتقل إلى باريس بناءاً على دعوة أستاذه الأفغاني وأصدر مجلة (العروة الوثقى) ثم عاد إلى مصر بعد ست سنوات عام ١٨٨٨، فانصرف بالدعوة إلى التجديد الديني وإصلاح المؤسسات والأوقاف والمحاكم الشرعية ، ولما توفي الخديوي توفيق عام ١٨٩٢ خلفه الخديوي عباس حلمي الثاني الذي عين محمد عبده في مجلس إدارة الأزهر ، ثم تولى الإفتاء عام ١٨٩٩، واختير عضواً في مجلس شورى القوانين ومجلس الأوقاف والجمعية الخيرية الإسلامية[١٧] ، وبالرغم من تقلد محمد عبده مناصب عدة لم يغير من موقفه اتجاه الاحتلال بل واصل معارضته بعدها الطريق الوحيد للتخلص منه[١٨] ، حيث ترك بصماته الفكرية والسياسية على الحركة الوطنية المصرية ، لذلك أكد على وجوب حب الوطن إذ قال((إن المصري يجب أن يحب وطنه وأمته)) ثم دعا إلى نبذ التعصب العنصري[١٩] ، وأكد على غرس الروح الوطنية والارتباط بالوطن وأن الاستقلال السياسي هو بمثابة تحصيل حاصل للتربية الوطنية[٢٠] ، إذ إن مفهومه للوطنية اعتمد على منظور الشرعية الدستورية ، التي تعطي الأولوية للحرية الداخلية كمقدمة ضرورية للتحرر الخارجي[٢١] ، كما رأى أن السياسة التي ينبغي على بريطانيا اتباعها في مصر هي سحب قواتها العسكرية ، وأن تتفق مع السلطان العثماني على إقامة حكم جديد في مصر[٢٢] .

عبر محمد عبده عن موقفه المعارض للاحتلال البريطاني حيث قال ((إن العمل لإخراج البريطانيين من مصر عمل كبير جداً ، وللوصول إلى تلك الغاية ينبغي السير في الجهاد على منهاج الحكمة والدأب على العمل الطويل، ولو لعدة قرون))[٢٣] .

وبذلك كانت مواقف محمد عبده واضحة ضد الاحتلال البريطاني وهذا ما تم ذكره في ثورة عرابي.

استفاد محمد عبده من خطوات الإصلاح الديني التي اتبعها الأفغاني، ثم أطرها في طروحاته و تفكيره ، إذ افترض أربع مراحل رئيسة لعملية الإصلاح والانبعاث ، ارتكزت الأولى على تحرير العقل من قيود التقليد، والثانية إلى الفهم السليم للدين الإسلامي، مع التشديد على العصر الأول بعده العصر الذهبي للعرب والمسلمين، ويقود هذا الفهم إلى المرحلة الثالثة التي تجسد أن السلطة النهائية في كل ما يتعلق بالعقيدة الدينية لا تكمن في المذاهب أو رجال الدين ، بل في القرآن الكريم والسنة النبوية ، أما المرحلة الرابعة فهي دراسة الحقائق الدينية على أسس عقلانية وذلك أخطر ما دعا إليه محمد عبده ، غير أن تلك الدراسة لم تدخل حيز التنفيذ العملي، لان جهوده هو وتلامذته تركزت على إخراج المجتمع المصري عن التقليد الديني دون التعارض مع مبادئ العقيدة الصحيحة، وعليه فقد انصبت جهود محمد عبده على إصلاح مؤسسات التعليم الدينية وفي مقدمتها الازهر[٢٤] .

وهذا يعني وجود قصور في مناهج الدراسة في الأزهر ، مما كان له تأثير في بنية المجتمع المصري واتجاهاته الفكرية لذلك اتجه محمد عبده إلى إصلاح مناهج الأزهر ، وتحديث مناهج الدراسة لتصبح أكثر نفعا وتعبيراً عن حاجات الناس ، وقد خاض في سبيل ذلك صراع فكري مع أصحاب الاتجاهات المحافظة في الأزهر ، إذ تعرض إلى انتقادات وشكوك وشبهات من منتقديه الذين اتهموه بالتساهل والتفريط في أقامة الفرائض الدينية[٢٥]، وابتدأ محمد عبده عمله الإصلاحي بمهاجمة الأزهر ونقد المحاكم ونقد الحياة الاجتماعية ، ومما يلفت النظر أن محمد عبده لم يكن حرجا من اقتباس القوانين التشريعية الغربية ، ما دام ذلك يحقق الإصلاح في نظره ، كما أن إعجابه بالثقافة الغربية هو الذي جعله يبالغ في انتقاص الأزهر ، وهذا المنهج الذي سار عليه الإصلاح في مصر الحديثة هو الذي يريده كرومر (**Cromer**) لإقامة مجتمع مصري لا صله له بالإسلام[٢٦] ، ويبدو ان محمد عبده لم تكن لديه صورة واضحة ، وإنما كان يقصد وضع خطة تلائم ظروف مصر وحاجاتها في الإصلاح الذي ينشده في ظل الاحتلال البريطاني .

وجهت انتقادات كثيرة لمحمد عبده منها صداقته لممثلي الاحتلال البريطاني (كرومر و بلنت) ، ثم الفتاوى التي أصدرها منذ تسلمه منصب مفتي الديار المصرية كالفتوى حول ربح

صندوق التوفير، والتأمين على الحياة ، وكذلك فتاوى في مسائل اجتماعية اعتمد في تفسيرها على العلوم الطبيعية الحديثة ، فاحدث ذلك تناقضاً بين منهج المسلمين والحياة العصرية[٢٧].

فسرت هذه الشبهات حسب وجهة أصحابها ، أن ثقافة محمد عبده الفكرية ثقافة مركبة من عنصرين أساسيين مختلفين في المنهج والأهداف ، الأول : إسلامي تقليدي محافظ وقد ثار عليه فيما بعد ، والثاني: عقلاني غربي استمده من ثقافة العصر من خلال اتصاله المباشر بالمفكرين الأوربيين أثناء وجوده في لندن وباريس ، ومعظم هؤلاء كانوا من المتأثرين بفلسفة عصر الأنوار ، كذلك بتقربه من كرومر و بلنت ، لذلك حاول محمد عبده أن يضع في إطار إسلامي مفاهيم فكرية ربما تكون (علمانية) استمدت من الفكر الغربي، معتبراً أنها وليدة تطورات شملت جميع مناحي الحياة في عصره، والقضية المركزية في تفكيره تتلخص في كيفية خلاص المجتمع المصري من انحطاطه ، مع بقائه مجتمعاً إسلاميا[٢٨] .

جابهت محمد عبده قضية أساسية تمثلت بالعالم الإسلامي كمجتمع ديني وعلاقته بالمدنية الغربية ، إذ حاول أن يقدم مفهوما للإسلام يرسخ دعائم فكر عملي يجعل من الإسلام الركيزة الأساسية للتقدم نحو المدنية من دون التفريط بأصالته[٢٩]، إذ رد على أولئك الذين يعدون الإسلام سبباً في التخلف مخاطباً الغرب قائلاً :((فسيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم إلى طلب مخرج منها فلا يجدونه إلا في الإسلام))[٣٠]، ولولا أن الإسلام حق بذاته ، مؤيد بتأييد الله ، محفوظ بحفظه ، لم تبق منه بقية تصارع الشر في الأرض ، التي ما تركت سبيلا من المكر إلا سلكته ، ولا سببا لإطفاء نوره إلا أخذت به ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين[٣١] .

ثالثاً : مؤلفاته وطروحاته الفكرية .

إن المجتمع المثالي الذي أراده محمد عبده هو الذي يسوده العقل لا القانون ، وأن المسلم الحق في رأيه هو الذي يعتمد على العقل في شؤون الدنيا والدين، وما الكافر إلا ذلك الإنسان الذي يغمض عينيه فلا يرى نور الحقيقة ولا يقبل اعتماد البراهين العقلية ، والإسلام بخلاف ما زعم أعداؤه ، فلم يدع إلى إهمال العقل ، والمجتمع المثالي الصالح هو الذي يقبل أوامر الله تعالى ويتمثل لها ويفسرها تفسيراً عقلياً وفقاً للصالح العام[٣٢] .

انقسمت حياة محمد عبده إلى قسمين : تضمن الأول منها المدة التي عمل فيها تحت إشراف أستاذه الأفغاني ، إذ أخذ عنه أهم أفكاره الإصلاحية والدينية ، أما القسم الثاني فقد بدأ

منذ عودته من منفاه إلى مصر عام ١٨٨٨، حيث كرس حياته للإصلاح الاجتماعي والديني كقاضي ومفتي للديار المصرية لذلك بقيت بصماته الفكرية واضحة في حركة الفكر المصري الحديث[٣٣] ، ومع ذلك فقد ذكر البعض عن وجود بعض الاختلافات بين محمد عبده وأستاذه الأفغاني فالأول غلبت على تفكيره النزعة الإصلاحية في حين كان الأخر ثورياً ويدعو إلى الانضمام إلى العمل الجماهيري ، وذكر محمد عبده قائلاً: ((إن علينا ألان أن نهتم بالتربية والتعليم بعض سنين وان نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وان نبدأ بترغيبها في استشارة الأهالي في مجالس خاصة تسمى "بمجلس المديريات"[٣٤]))[٣٥] ، كذلك من أعمال محمد عبده التي تركت أثرا واضحاً على مجرى الفكر السياسي المصري ، محاولاته الجادة في تفسير الرسالة الإسلامية تفسيراً عصرياً ينسجم مع العلوم العقلية الحديثة(أي تفسير القرآن الكريم على النهج الحديث وربطه بالأحداث)، ثم دعوته إلى نشر العدالة الاجتماعية وتحقيق الاستقرار في المجتمع المصري ، ثم الدعوة إلى قيام جامعة مصرية إلى جانب مؤسسة الأزهر، وهذا دليل على ضرورة التوافق بين العلم الحديث والتراث الإسلامي الأصيل[٣٦].

ومن جملة اهتمامات مجلة(الهلال) بالموضوعات الفكرية ما جاء في أحد أعدادها((لقد كان الشيخ محمد عبده في حركته الإصلاحية يدعو إلى وجوب توحيد الجهود وقيام هيآت للإصلاح لا يتسرب اليأس إليها ، ولا تعرف في الحق رياء ولا دهانة حتى بلغ به التحمس لفكرته أن أخذ الحكمة التي نطق بها فيلسوف الشرق جمال الدين الأفغاني ، وهي: إنما ينهض بالشرق مستبد عادل – مستبد يكره المتناكرين على التعارف، ويجلي الأهل إلى التراحم ، ويحمل الناس على رأيه في منافعهم...))[٣٧] .

أشار محمد كُرد علي[٣٨] أحد مفكري و مثقفي الشام المهاجرين إلى صور الحياة الفكرية في القاهرة مطلع القرن العشرين ولقاءات مثقفيها فقال : ((دخلت مصر أول مرة وحضرت دروس الشيخ محمد عبده في الرواق العباسي في الأزهر ، وكنت اغشي مجلسه الخاص في داره بعين شمس مرة في الأسبوع ، وكان يوم الاستقبال في داره أعظم واسطة لمعرفة طبقات مختلفة من أعيان الأمة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم))[٣٩] .

عاد محمد عبده إلى مصر بعد العفو عنه ، فانصرف إلى قضايا التجديد الديني والإصلاحي، اختير عضواً في مجلس شورى القوانين، عين مفتياً لمصر سنة ١٨٩٩، وقد استفاد محمد عبده من عمله في القضاء وتعيينه مفتياً للديار المصرية سنة ١٨٩٩، ليسخّر

هذا المنصب للحث على الأخلاق وإصلاح العائلات وعقاب الفاجرات ، وقد كان يعاقب المزورين وشهداء الزور ، وكان يطارد الفحش والفجور ، فقد كان يحكم بأشد العقوبات التي يسمح بها القانون على كل بغي تبرجت في الشوارع وعلى أعين الناس [٤٠].

من أشهر مؤلفاته الفكرية و الأدبية: رسالة التوحيد، و الإسلام والنصرانية ، رسالة الواردات ، الإسلام والتجديد ، شرح البصائر النصرانية ، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، توفي محمد عبده في القاهرة عام ١٩٠٥ [٤١].

والقول الموجز في رسالة محمد عبده الفكرية أنها ارتكزت على ثلاثة أمور : الإصلاح الديني لاسيما الأزهر ، إصلاح اللغة والأدب ، والإصلاح السياسي ، ثم إنه لم يكن منظراً ومفكراً أيديولوجيا نظرياً فحسب ، إنما جسد أفكاره عملياً عن طريق اشتراكه بالحركة الوطنية المصرية التي نتجت عنها ثورة عرابي ، فقد أكد على المبادئ الوطنية وحب الوطن ، لذلك استطاع أن يؤثر في قطاع واسع من المثقفين والكتاب والمفكرين المصريين ،أمثال محمد رشيد رضا ، وأن يكون أحد دعاة الجامعة الإسلامية.

يمكن تحديد أهم الأسس التي ارتكزت عليها دعوة محمد عبده الفكرية في الاتجاه الديني الإصلاحي على النحو الآتي :

أولا : تطهير الإسلام من البدع والضلالات ، والعودة به إلى أصوله الأولى ، كما هاجم التقليد تبعاً لمنهج أستاذه الأفغاني ، ثم دعا إلى الحفاظ على العقيدة خشية طغيان الفكر الغربي الحديث، حيث ذكر في هذا الصدد((ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من غلطه، وضبطه ،لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني))[٤٢] ، لذلك اعتبر أن مهمته كمصلح ديني اجتماعي تتركز حول مبدأين أساسيين ، الأول: إعادة تحديد ماهية الإسلام الحقيقية والثاني : تحديد موقف الإسلام من المجتمع الحديث ومفاهيمه[٤٣] .

كان محمد عبده يريد بناء مجتمع متطور غير أنه لا يخرج مفهوم الإسلام، فهو يريد إصلاح البناء القديم ولا يريد تشييد بناء بسبب عدم توفر مواده ، لذلك دار خلاف بينه وبين دعاة التيار العلماني أمثال فرح انطون[٤٤] ، فقد أثار انطون في كتابه عن ابن رشد موضوع

علاقة الإسلام بالعلم والحضارة الحديثة في وقت تعرض فيه الإسلام للنقد الشديد من قبل المفكرين الأوربيين ، أمثال كرومر الذي اعتبر الإسلام ديناً معادياً للعلم والتقدم وذلك من خلال كتابه (مصر الحديثة) الذي نشر عام ١٩٠٨ [٤٥] ، لذلك كانت ردود محمد عبده واضحة وأكثر بعداً وأثرا، إذ رفض رفضاً قاطعاً ادعاء فرح انطون فقدم البراهين من الآيات القرآنية التي تركت للإنسان حرية الاختيار في معتقده الديني ، ومنها ما ورد في سورة الكهف كقوله تعالى:﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[٤٦]، وذهب محمد عبده إلى أن الإسلام لا يترك سلطان على عقيدة أو إيمان أحد بعد الله ورسوله ، وليس لمسلم على مسلم سوى النصيحة والإرشاد فالمسلمون يتناصحون ، وأمتهم أمة تدعو إلى الخير وتنفر عن الشر ، والمسلم لا يتلقى أصول عقيدته إلا عن كتاب الله وسنة رسوله(صلى الله عليه وسلم)[٤٧].

ويتضح من ذلك أن محمد عبده سار في هذا الاتجاه على خطة الدعوة الإصلاحية السلفية فأخذ بآراء ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب في العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى، لذلك عدّ الاستغاثة بالقبور والأولياء والصالحين نوعا من أنواع الشرك ، وله في ذلك كلام مفصل في كتابه رسالة التوحيد[٤٨]. وهذا يعني أن الصفة الغالبة على شخصية محمد عبده الفكرية هي النزعة الإصلاحية الدينية.

ثانياً : إعادة النظر في عرض المذاهب الإسلامية طبقاً للمفهوم الفكري الحديث ، والتوفيق بين العلم والدين ، كما دعا إلى استعمال العلوم الحديثة في تفسير الآيات القرآنية، حيث قال((على أننا نحن المسلمون لسنا بحاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الطب ... فنحمد الله تعالى أن القرآن أرفع من أن يعارض العلم))[٤٩] .

ثالثاً : دعا محمد عبده إلى الدفاع عن الإسلام ضد التأثيرات الغربية وضد حملات المبشرين قائلاً:((الشريعة الإسلامية باقية إلى آخر الزمان ، ومن لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان ، مهما تغيرت أساليب العمران ... وهي تتعلق بأحوال البشر ما وجدوا ولا يحيط بذلك علماً إلا عالم الغيب والشهادة ، وهو الذي جعل أساسها حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال والنسل))[٥٠].

وقدم لنا محمد عمارة دراسة وثائقية عن الخلفية الفكرية الدينية لمحمد عبده تضمنت مقتبسات من أقواله وكانت على النحو التالي((أن الخليفة حاكم مدني من جميع الوجوه ؛ وليس في الإسلام سلطة سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر؛ ليس في الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه؛ إن الشرع لم يجيء ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام ، ولا طريقة معروفة للشورى عليهم ؛ إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان لا يجوز حمله على الكفر))[٥١] .

الخاتمة

يعد الشيخ محمد عبده أحد زعماء الحركة الفكرية في مصر في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وأحد تلامذة جمال الدين الأفغاني ، وكان للوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي المتردي والتدخل الأجنبي في مصر ونهب خيراتها دور هام في بروز الحركة الفكرية وتضامن رجالها مع أحمد عرابي في ثورته ضد الاحتلال البريطاني ، إذ أسهم الشيخ محمد عبده بنشاط كبير في الحركة الوطنية المصرية . وبالرغم من نفي محمد عبد خارج مصر إلا أن روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها في المجتمع المصري ، وبقيت النفوس ثائرة ومتأثرة بطروحاته الفكرية تتطلع إلى إصلاح نظام الحكم وإقامته على دعائم الحرية والشورى ، ولم يكن أثره أقل من هذا في النهضة العقلية والدينية .

ويتضح من أقوال محمد عبده أن فكره كان مقبولا من قبل الشعب المصري والرأي العام لأنه دعا إلى التغيير والتطور، بل وفيه قرابة بين الإسلام وأصول الحكم الحديث ، وبالرغم من الانتقادات التي وجهت إلى شخصية محمد عبده وطروحاته الفكرية من قبل بعض الكتاب والمؤرخين والمفكرين ، ومع وجود بعض الأخطاء في فهم بعض المفاهيم والمشكلات آنذاك إلا انه يبقى مصلحاً ذا فكر متميز ، ومدرسة فكرية في التاريخ المصري الحديث بشكل خاص والوطن العربي والعالم الإسلامي بشكل عام ، أي أن محمد عبده كان مفكراً إصلاحيا إسلاميا سلفياً توفيقياً في الأخذ من التطور العلمي الحديث ، وسار على هذا التوجه الفكري حتى وفاته عام ١٩٠٥.

هوامش البحث

(١)- فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص٥٢٦ .

*- جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) ولد في إحدى قرى سعد أباد في أفغانستان ، تلقى تعليمه في كابل عاصمة الأفغان ، تجول في عدد من البلدان العربية والإسلامية ، دخل مصر عام ١٨٧١ وأقام فيها حتى عام ١٨٧٩اشتهر بالعلوم العربية وعلوم الشرعية والتاريخ والفلسفة وعمل في تدريس هذه العلوم في مصر عن طريق حلقات التدريس في بيته ثم الجامع الأزهر ، وهو من الأوائل الذين نادوا بفكرة تأسيس الجامعة الإسلامية ، اشترك مع تلميذه محمد عبده في إصدار مجلة العروة الوثقى في باريس ، توفي بمرض السرطان .. ينظر : عبد الوهاب الكيالي ، كامل الزهيري ، المصدر السابق ، ص٦٢؛ جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ، ج٢ ، ص٥٥-٥٩.

(٢) – أمين عثمان ، محمد عبده ، دار المعارف الإسلامية القاهرة ، ١٩٤٤، ص٢٤.

(٣) – أمين عثمان ، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، ط٢، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٦ ؛عبد الله العروى ، الأيديولوجية العربية المعاصرة ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص١٠٨.

(٤) – أبا عوض أحمد ، الفاربي عبد اللطيف ، الحركات الفكرية والأدبية في العالم العربي الحديث ، ط١ ، الدار الثقافية ، المغرب ، ١٩٨٣ ، ص٣٢.

(٥) – جلال يحيى ، مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، الإسكندرية، ١٩٨٤ ، ص٢٨٣.

(٦) – أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، شركة نوابغ الفكر ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٨ ، ص٢٩٦-٢٩٨.

(٧) – رشيد الذوادي ، رواد الإصلاح ، ط٢ ، مؤسسة عبد الكريم للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٩٨٣ ، ص١٠٤.

(٨) – رأفت الشيخ ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٨٠؛ غالي شكري ، النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ، ج٢ ، ط٣ ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٩، ص١٨١.

(٩) – أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣، ص٣٥.

(١٠) – سورة الزمر: من الآية ٩

(١١) – محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ج١، مطبعة المنار، القاهرة ، ١٩٣١ ، ص٤٢٥.

(١٢) عثمان أمين ، دروس للشباب في سيرة الأستاذ الإمام ، ص٩٦.

(١٣) محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١، ص٤٢٥.

(١٤) – أمين عثمان ، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، ص٣٨.

(١٥) –عبد العزيز رفاعي ، وحسين عبد الواحد الشاعر ، الوحدة الوطنية في مصر عبر التاريخ ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص٧٠.

(١٦) محمد عبد الرحمن برج ، المصدر السابق ، ص٦٤.

(١٧) – مجلة الهلال (المصرية) ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، ج١٠، السنة الثالثة عشر، آب ١٩٠٥، ص٥٥٤– ٥٥٩ .

(١٨) – محمد عمارة ، وطنية الشيخ محمد عبده ، مجلة الكاتب (المصرية) ، عدد ١٥٠ ، السنة الثالثة عشر، أيلول ١٩٧٣، ص١١٤ .

(١٩) ينظر: ليفين ، المصدر السابق، ص١٩٢؛ محمد نور الدين افاية ، الغرب في المتخيل العربي، ص٢٥.

(٢٠) – ألبرت حوراني ، المصدر السابق ،ص ١٩٤ ؛ فرانتس نشتر ، المصدر السابق ، ص١٩٦.

(٢١) – عبد الله العروى ، المصدر السابق ، ص١٠٩.

(٢٢) – سؤدد عبد الحسين ، المصدر السابق،ص٢١٠.

(٢٣) – ينظر: محمد عمارة ، وطنية الشيخ محمد عبده ، ص١١٩؛ محمد الحسن ، الأفكار والمذاهب المعاصرة في التصور الإسلامي، ص١٨٤ .

(٢٤) – محمد كامل ظاهر ، المصدر السابق ،ص١٥٨–١٥٩.

(٢٥) – ألبرت حوراني ، المصدر السابق ، ص١٧٥–١٧٦.

(٢٦) – سيد بن حسين العفاني ، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام ، ص٨٥ –٨٦ .

(٢٧) – محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ص٨٥ ؛ جبار الرفاعي ، محمد عبده ومحمد إقبال ، مجلة دراسات الأديان، ص١١٤

(٢٨) – غالي شكري ، المصدر السابق، ص١٨١–١٨٢.

(٢٩) – عبد الصبور مرزوق ، الغزو الفكري أهدافه ووسائله ، ص١٠٩ .

(٣٠) – نقلاً عن : أبا عوض أحمد ، المصدر السابق ، ص٣٤– ٣٥ .

(٣١)– ينظر: عبد الرحمن حسن الميداني ، غزو في الصميم ، ص ٥٥ .

(٣٢) – محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام،ج١، ص١٠٦

(٣٣) – ابا عوض أحمد ، المصدر السابق ، ص٣٦.

(٣٤) – مجالس نيابية كانت تمثل المديريات ، أنشئت بناء على القانون النظامي الصادر في أيار عام ١٨٨٣ الذي تضمن إقامة مجلس شورى القوانين والحكومة ، وأصبحت هذه المجالس تعقد فيها اجتماعات اللجنة= =الخاصة للموظفين . ينظر : مركز الوثائق والبحوث التاريخية المعاصرة ، ٥٠ عام على ثورة ١٩١٩ ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص١٤٥ .

(٣٥) – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، تحقيق : محمد عمارة ، ج١، ط١، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٣، ص٤٣.

(٣٦) – أحمد الجبوري ،المصدر السابق،ص٦١؛ أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص٣٣٣.

(٣٧) – مجلة الهلال ، ج٧، السنة السابعة والأربعون ، شباط ١٩٣٩، ص٣٦١.

(٣٨)– ولد في دمشق سنة ١٨٧٦ ، اشتغل بتحرير جريدة " الشام " الأسبوعية ، رحل إلى مصر فحرر فيها جريدة (الرائد المصري) ، اصدر مجلة (المقتبس) ، عاد إلى دمشق فاستقر فيها ، توفي سنة ١٩٥٣. له عدة مؤلفات منها : خطط الشام ، الإسلام والحضارة . ينظر : يوسف اسعد داغر ، مصادر الدراسة الأدبية ، ج٢ ، مطابع لبنان ، بيروت ،١٩٥٦، ص٦٥٥–٦٥٦ .

(٣٩) – نقلا عن : محمد كرد علي ، المذكرات ، ج١ ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٤٨ ، ص٥٥ .

(٤٠) – محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢، ص٩١٦.

(٤١)- فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ص٥٢٦ .

(٤٢) – محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الإمام،ج١، ص١١.

(٤٣) – محمد كامل ، المصدر السابق ، ص١٦٣.

(٤٤) – ولد في القاهرة عام ١٨٧٢، حصل على شهادة الحقوق عام ١٨٩٤، عمل في القضاء المصري من عام ١٨٩٦–١٩٠٥، عمل في السياسة وأسهم في تأسيس حزب الأمة عام

١٩٠٧، عمل في الصحافة وحرر صحيفة(الجريدة) الناطقة بلسان الحزب، انتخب نقيباً للمحامين المصريين أكثر من مرة ، توفي بالقاهرة عام١٩٢٦، ينظر : سؤدد عبد الحسين ، المصدر السابق ، ص٢٠٢ .

(٤٥) – المنار مج١١،ج٢، ثلاثة نيسان ، ١٩٠٨ ، ص٨٨–٨٩ ؛ فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب، ص٨٥٤.

(٤٦) – سورة الكهف من الآية:٢٩

(٤٧) – محمد عمارة ، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ،ج١، ص١٠٤–١٠٥؛ سيد بن حسين العفاني ، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام ، ص١٢٣.

(٤٨) – ابا عوض أحمد ، المصدر السابق ، ص٣٧–٣٩.

(٤٩) – نقلاً عن : علي المحافظة، المصدر السابق، ص٨٣–٨٥.

(٥٠) – أمين عثمان ، رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، ص٢٢٥؛ رشيد الذوادي ، المصدر السابق ، ص١٠٣؛ علي المحافظة ، المصدر السابق ، ص٨٥.

(٥١) – نقلا عن : غالي شكري ، المصدر السابق ، ص٢٤٦ .

قائمة المصادر

– **القرآن الكريم** .

١– أبا عوض أحمد ، الفاربي عبد اللطيف ، الحركات الفكرية والأدبية في العالم العربي الحديث، ط١ ، الدار الثقافية ، المغرب ، ١٩٨٣ .

٢– أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، شركة نوابغ الفكر ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٨ .

٣– أحمد عبد الرحيم مصطفى ، تطور الفكر السياسي في مصر الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٤– أمين عثمان،رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده،ط٢،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٦٥ .

٥– أمين عثمان ، محمد عبده ، دار المعارف الإسلامية القاهرة ، ١٩٤٤ .

٦– ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عهد النهضة ١٧٩٨ – ١٩٣٩ ، ترجمة : كريم عزقول ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٨٦ .

٧– جبار الرفاعي ، محمد عبده و محمد إقبال ، مجلة دراسات الأديان ، ع١٥ ، السنة السادسة، بغداد ، ٢٠٠٨ .

٨ – جلال يحيى ، مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٤ .

٩- رشيد الذوادي،رواد الإصلاح ، ط٢ ، مؤسسة عبد الكريم للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٩٨٣ .
١٠- ز. ل . ليفين ، الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا و مصر، ترجمة : بشير السباعي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٨ .
١١- سيد بن حسين العفاني ، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام ، ج ١ ، ط١ ، دار ماجد للنشر والتوزيع ، جده ، ٢٠٠٤ .
١٢- سؤدد عبد الحسين سبتي الربيعي ، دور النخبة المثقفة في الحياة الفكرية والسياسية في مصر من١٨٦٩إلى ١٩١٨ ، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٧ .
١٣- عبد الرحمن حسن الميداني ، غزو في الصميم (دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي) ، ط٤ ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٩٦ .
١٤- عبد الله العروى ، الأيديولوجية العربية المعاصرة ، بيروت ، ١٩٧٠ .
١٥- عبد الصبور مرزوق ، الغزو الفكري أهدافه ووسائله ، مؤسسة مكة للطباعة والنشر،مكة، د. ت .
١٦- علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ – ١٩١٤، الأهلية للنشر، بيروت ، ١٩٨٧ .
١٧- غالي شكري ، النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ، ج٢ ، ط٣ ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
١٨- مجلة الهلال (المصرية) ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، ج١٠، السنة الثالثة عشر، آب ١٩٠٥ .
١٩- محمد الحسن ، الأفكار والمذاهب المعاصرة في التصور الإسلامي ، ط٤ ، دار البشير للثقافة والعلوم ، الدوحة ، ١٩٩٨ .
٢٠- محمد رشيد رضا،تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده،ج١ مطبعة المنار،القاهرة، ١٩٣١.
٢١- محمد عمارة،الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده،ج١، ط١ دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣ .
٢٢- محمد عمارة ، وطنية الشيخ محمد عبده ، مجلة الكاتب (المصرية) ، عدد (١٥٠) ، السنة الثالثة عشر، أيلول ١٩٧٣ .
٢٣- محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، ط٩ ، دار الرسالة ، الرياض ، ١٩٩٣
٢٤- فرانتس نشتر ، وآخرون ، تاريخ العالم العربي الحديث ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٥ .
٢٥- فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٨ .